القرآن الكريم

مؤتمر

في مطلع القرن الخامس عشر الهجري

للأستاذ/عبدالحميد السائح

جميل جدا أن تهتم المؤتمرات واللقاءات والجماعات الاسلامية على المستويين الرسمي والشعبي ، بمطلع القرن الخامس عشر الهجري ، لأنه يمثل فترة من الزمن قد مضت ، سجل علينا فيها ما اكتسبناه وما جنيناه ، وستحاسبنا الاجيال على ذلك لنأخذ نصيبنا من التقدير أو التكدير ، جزاء وفاقا ، وأخيرا سيحاسبنا العليم الخبير ، سبحانه ، على كل ما قدمناه ، ضمن القاعدة العادلة ، الناس مجزيون بأعمالهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، كما ورد في الأثر ، وكما قال سبحانه : **(هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون)** يونس/٥٢ ، ولقوله : **(هل يجزون إلا ما كانوا يعملون)** الأعراف/١٤٧ ، وقوله عز شأنه : **(ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا)** الكهف/٤٩ .

كما يمثل مطلع القرن الجديد آمالا مرجوة في فترة قادمة من الزمن ، نتلافى فيها تقصيرنا ، ونعد فيها لمستقبلنا ، ونخطط فيها لوقف التدهور الرهيب ، ونمنع فيها مسيرة الأخطار المتلاحقة ، كما نخطط لمدارج النهضة والتطور والتقدم .

لقد حضرت بعض جلسات لمؤسسات تخطط لمطلع ذلك القرن ، كما اطلعت على مخططات أعدت من مؤسسات أخرى ، وكلها تدور حول كنوز مدفونة ، يراد إبرازها ، أو إزالة ما علق ببعض تراثنا ، من أغلفة حجبت حقيقته ، أو شوهت معالمه ، أو إحداث معالم ثقافية نكمل فيها مشاريعنا ، ونظهر فيها آثار اهتمامنا بحضارتنا ، ومصادر أمجادنا ، أو مؤتمرات ، تشكل مواسم ثقافية ، تجلي واقعنا ، وتشرح عللنا وأمراضنا ، وتوضح واجباتنا ، وتنجلي عن مخططات واضحة وآراء راجحة ، ندفع بها ما يحيط بنا من أخطار ، وما تتعرض له أمتنا من دواهي ونكبات ، ويدون كل ذلك في سجلات مطبوعة نتداولها في مختلف مجتمعاتنا ، التي يشملها القرن الخامس عشر الهجري ، بجميع أبعاده ، ويصيبها خيره ، أو يلحقها شره وضره ، وذلك للتنفيذ أو الاعتبار .

واقعنا الآن

وإذا نظرنا إلى واقع الأمة العربية والاسلامية ، في الوقت الحاضر ، أينما اتجهنا ، لا نجد فيها ما يسر الخاطر ، ولا ما يبهج الناظر ، ولا تبشر المقدمات الظاهرة بنتائج أحسن ، على المدى القريب على الأقل ، إذا استثنينا مواقع تتطلع إليها الاعناق ، لتستقر وتسير على طريق الهدى والرشاد .

نجد في مجتمعاتنا تخاذلا وتفككا ، وأنانية وانحرافا ، كل كيان مستأثر بالمحافظة على شخصيته ، والحرص على وضعيته ، لا يقبل دمجا ولا اندماجا ، ولا يقبل وحدة ولا اتحادا ، مع أن سبيل الخلاص يكمن في التجمع ، لا في التفرق .

وحينما نتحدث عن الاستعمار يوم كان مخيما على أوضاعنا ظاهرا وعلنا ، نتهمه بأنه جزأ أوطاننا ، وقضى على وحدتنا ، وفرق شملنا ، وهذه تهمة صحيحة ، لأن الاستعمار بجميع أشكاله وألوانه ، لا يريد لنا خيرا ، ولا يطمئن لوحدتنا وتقاربنا ، بل إنه يعتبر كل ما يؤدي إلى تفاهمنا ، نذير شر عليه ، ودليل يقظة وتنبه لمخططاته وإفساد مؤامراته .

والغريب في واقعنا أننا نتمسك بجرائم الاستعمار ونعض عليها بالنواجذ ، ونقرر في مؤتمراتنا ، وخطاباتنا ، أن السبيل الوحيد لدرء الأخطار عنا هو توحيد قوانا ، وتجميع شملنا ، والقضاء على شرذمتنا . وعند محاولة التنفيذ نبتعد عن كل ما قررناه ، ونتمسك بكل ما ألفيناه ، ويمثل واقعنا قول الله سبحانه : **(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون)** البقرة/١٧٠ .

والعلة المتأصلة فينا أننا ورثنا عن الاستعمار أفكارا صارت منا كأنها حقائق خالدة ، وقواعد ثابتة ، لا تغيير فيها ولا تبديل .

وكلنا يردد قول الله سبحانه : **(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)** الرعد/١١ . والكل تقريبا يصرون على ما يخفون في أنفسهم ، والمتاجرة بألفاظ براقة ترضي بها الجماهير ، وتخفف من نقمتها وتذمرها .

وهذا الوضع المزري والمؤلم ، يقابله وضع آخر ، تجد فيه أفرادا أو جماعات يتحسسون الآلام ، ويبحثون عن طريق الخلاص ، ومن هؤلاء من يرون الخير في العودة إلى أصول حضارتنا ، وجذور تراثنا ، ومع أن هذا هو الطريق الأصوب والسبيل الأرشد ، لكنه غير محدد بأهداف دقيقة وقواعد متينة ، ومسالك رصينة ، ولا يكفي أن نقول مثلا : القرآن مرجعنا والحديث مرشدنا ، لأن باب التأويل والتحريف ، قد دخله بعضنا وأخذ يتصرف بغير انضباط ، مما ينذر بخطر كبير ، لذلك يجب وضع مخطط ، يتضمن أصولا لا ينازع فيها ، وقواعد لا تمسها يد التغيير

والتبديل ولا التأويل .

وقد عرف أعداؤنا تمكن تلك العلل فينا ، أو أنهم مهدوا السبل لتغلغلها ، تأمينا لمصالحهم وأهدافهم ، فأحكموا المؤامرات واغتالوا الأوطان والمقدسات ، وطعنونا في كل ما يمس كرامتنا ، ومشاعرنا ، حتى استولوا على القدس والخليل وسائر الديار ، وعرضوا الأقصى والمسجد الابراهيمي لمظاهر التبذل ، ويحاولون الاستيلاء على كل ذلك من غير حرج ، وشرورهم وأطماعهم تمتد إلى ما وراء ذلك أيضا ، حتى لا تستثني مكة المكرمة ، ولا المدينة المنورة ، والشواهد على كل ذلك تتكرر كل يوم وتظهر على المسرح ، من غير خجل ولا استحياء ، وكأننا نضع على عيوننا ما يحجب عنها الحقيقة ، وإن كان الخطر ماثلا ، والنكبات متوالية .

وهذه لبنان ومحنتها ، وهذه فلسطين ومخيماتها ، وهذه المستوطنات المتناثرة ، وهذه الحفريات المتواصلة ، وهذه الاستملاكات والاعتداءات المتكررة في القدس والمسجد الأقصى والخليل والمسجد الابراهيمي ، ونابلس وجنين ، وأريحا وما دون ذلك وما حوله ، كلها شهود ناطقة ، بل محذرات منذرات ، وهذه تصريحات زعماء الصهيونية ، وألاعيب السياسة الأميركية ، واستخفاف بعض الحكام بالأمة العربية ومن ورائها الأمة الاسلامية ، وكل ذلك ينادي ويستصرخ أولئك الذين أطبقوا جفونهم أن عليهم أن يفتحوها ليشاهدوا المآسي والمخازي ، ويتحركوا قبل أن يدق ناقوس الخطر ، أبواب بيوتهم ونوافذها ، وقبل أن يقول الواحد منهم ، أكلت يوم أكل الثور الأبيض .

نعم الله علينا كثيرة

إننا إذا أردنا أن نحتفي بمطلع القرن الخامس عشر الهجري فيجب أن نخطط لأعمال ناجعة ووسائل سليمة ، لازالة العار ، ودفع الأذى والضرر عن كل عربي ومسلم يصيبه أثر « مطلع القرن الخامس عشر الهجري » وأن نلتزم فعلا بتنفيذ ما قررناه ونقرره ، ويجب أن نأخذ في اعتبارنا ما أنعم الله به علينا ، ماديا ومعنويا ، عربيا وإسلاميا .

أنعم الله علينا بالمواقع الاستراتيجية ، التي لها أهميتها عالميا ، بين قارات آسيا وأوروبا وافريقيا ، والتي يتصارع الأغيار — على اختلاف منازعهم — من أجل الاستيلاء عليها .

وأنعم علينا بالبترول ، والبوتاس ، والفوسفات ، والمعادن المتنوعة الوفيرة ، ليكون كل ذلك ، سلاحا نستعمله للحفاظ على وجودنا ، ودرء الخطر عن إخواننا ، وليحقق الكفاية والحاجة الماسة للأمة بكاملها ، ولا يجوز أن يستأثر بهذه الخيرات فريق من الأمة ، قضت ظروفه أن يعيش على تلك البقعة من الأرض دون غيرها ، ويحرم منها

الفريق الآخر .

ونحن نرى الأعداء ، ولو تظاهروا بمظهر الأصدقاء ، يخططون من أجل نهبها والتصرف بها حالا أو مآلا .

وأنعم علينا بنعم كثيرة وفيرة ، وكما قال سبحانه : **(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)** ابراهيم/ ٣٤ .

نعمة القرآن الكريم

لكن هناك نعمة أجل وأعظم من كل ما ذكر ، أجل من المواقع الاستراتيجية وأخطر من منابع البترول ، ومصادر المعادن كلها ، ذلك أن المواقع قد يكون هناك بديل عنها ، وقد يشاركها غيرها في امتيازاتها ، وينابيع البترول ومصادر المعادن ليست الوحيدة في هذا العالم ، وقد تتوصل الحضارة الحديثة ، والتكنولوجيا المتقدمة ، الى بديل أو أبدال عنها ، وقد ينفد معين المعادن ، ولو بعد حين ، لكن هناك نعمة لا ينفد معينها ، ولا يمكن إيجاد بديل عنها ، ولم نقدرها حق قدرها ، ولو قدرناها ما أنزلناها منزلتها الجديرة بها ، ولو تحدثنا عنها لما أوفيناها حقها ، تلك هي نعمة القرآن ، الذي لا يقدر قدره ، ولا يدرك عظمته ، إلا من قذف الله في قلبه نور الايمان ، واستطاع أن يدرك ما في القرآن من عظمة خارقة ، تفوق كل المبتكرات والمخترعات ، انزلها على قلب رسول كريم ، حمل الدعوة ، وأنار المشعل ، فحطم الأصنام ، وقضى على عبادة الأوثان ، حجرية أو بشرية ، وحفظ للانسان كرامته وحرمته وحريته ، ودعاه إلى استعمال عقله ، واستكناه سر وجوده ، والتأمل فيما خلق الله ، في الأرض ، وفي السماء ، وفيما تحت الأرض ، والبحار ، وفيما فوق السماء ، كل ذلك من خلق الله وإبداعه ، وفيه أسرار ، والاطلاع عليها ، وإدراك أهميتها يحتاج إلى دأب ، ومثابرة ، بحيث يستمر العلماء في بحوثهم ، والمخترعون في اختراعاتهم ، والمفكرون في إبداعاتهم ، وكل هؤلاء وأولئك ، كلما تغلغلوا في علم ومعرفة ، كلما ازدادوا شعورا بالعجز ، وضعف أمام قوة ، وجهل أمام معرفة واسعة ، وليس هذا الذي أقول خيالا أو شعرا ، أو نظريات فلسفية ، وإنما هي حقائق الأمور تتجلى للمؤمنين ، الذين يؤمنون بالغيب ، والذين إذا تليت عليهم آيات ربهم زادتهم إيمانا ، والذين يشعرون بأن ربهم مطلع عليهم ولو كان عملهم في أعمق أعماق البحار ، كما قال سبحانه ـ على لسان لقمان لابنه : **(يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير)** لقمان/ ١٦ .

ولذلك قال سبحانه : **(إنما يخشى الله من عباده العلماء)** فاطر/ ٢٨ .

وقد ذكر الخبراء ، تعليقا على هذه الآية ـ بعد استعراض تباين الثمرات

والجبال والناس والدواب والأنعام ، وقد يشار إلى أن وراء هذا التباين في تلك الأحوال جميعها وحدة في الأصل ، فالثمرات من ماء واحد ، والجبال من صهارة واحدة ، وكذلك اختلاف الألوان ، والناس والدواب والأنعام لا يظهر في النطف التي تنشأ منها ، ولو فحصت بالمجاهر القوية ، فانها في مظاهرها لا تشير الى شيء مما تكنه من أوجه الاختلاف ، وإنما هي دقائق وأسرار تحتويها في داخلها (جيناتها) وربما كان هنا إشارة أيضا إلى الخصائص الوراثية الكافية في جراثيم النبات والحيوان والانسان تحافظ على فطرتها ولا تتغير حقيقتها بالبيئة أو الغذاء .

وأحق الناس بخشية الله هم العلماء الذين عرفوا أسرار اختلاف هذه الموجودات .

وقد علق على الآية صاحب المصحف الميسر ، بقوله : لأنهم هم الذين يدركون دقة صنعه سبحانه .

فاذا استعرضنا تلك النعم التي أنعم الله بها علينا أدركنا أن علينا واجب الشكر له سبحانه ، على ما أنعم وتفضل ، ولا أقصد بالشكر ترداد الكلمات والألفاظ فقط ، وإنما أقصد الشكر لله سبحانه بأفعالنا وأقوالنا وأعمالنا ، ومشاريعنا ومشاعرنا ، وسلوكنا وتصرفاتنا ، بحيث نكون صورة صحيحة صادقة لتعاليم الاسلام والقرآن ، وكان شعارنا الصدق في أقوالنا ، والأمانة في أعمالنا ، والتناصح في سلوكنا ، والصبر على ما يصيبنا ، والتنبه لأخطائنا ، والسير قدما لاصلاح أحوالنا ، والأعداد العلمي الكافي الوافي لأجيالنا أن يتسلموا الأمانة ، ويسيروا على درب العزة والكرامة ، والنهضة المستمرة ، والقوة العامة الشاملة .

فاذا فعلنا ذلك ، وقمنا بما ذكر نكون قد أدينا واجب النعم ، والله سبحانه يقول : (**لئن شكرتم لأزيدنكم**) ابراهيم/٧ . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » رواه مسلم واحمد .

هذه العقيدة الواضحة ، وهذه الطريق البيضاء الناصعة ، وهذا الايمان الراسخ ، إذا ثبتت جذوره ، وتأصلت قواه ، نبني حينئذ أمة الأمجاد والبطولات كما بناها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأكرمون ومن سار على دربهم من الأخيار الأطهار المؤمنين المخلصين ، وهي أمجاد لا حد لنشاطاتها ، ولا نهاية لطموحاتها ، ولا وقفة في تجاربها وبحوثها ، كما استلهموا ذلك كله من القرآن الكريم الذي (**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**) فصلت/٤٢ . وقال سبحانه : (**يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا**) النساء/١٧٤ . وقال عز شأنه : (**وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين**) الشعراء/١٩٢ ـ ١٩٥ . وقال

سبحانه : (**فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون**) الزخرف/٤٣ ، ٤٤ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الذكر هنا الصيت والشرف ، وقال تعالى : (**لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون**) الأنبياء/١٠ . وفي المصحف الميسر ، إنه فخر لك ولقومك ، لأنه بلسانهم ، وسيبقى ذكرهم ، ما بقي لسانهم .

وقال سبحانه : (**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**) الأنبياء/١٠٧ .

وكل هذا يتطلب من المسلمين أن يقتبسوا من كتاب الله ، وسنة رسول الله ، ما يحقق رحمة العالمين وإنقاذهم من الشر والفساد .

اهتمام المسلمين بالقرآن

وليس من قبيل المصادفة أن المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة ، الذي انعقد سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م حينما بحث فيما ينبغي عمله ، في مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، أن يشير إلى القرآن الكريم والعناية بالقرآن الكريم ، والتعلق بالقرآن الكريم ، كما أن الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامي في الجزائر الذي تم سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م حينما تحدث عن القرن الخامس عشر الهجري والحضارة الاسلامية ، وقد ساهم فيه علماء مسلمون ومستشرقون ، وطرحوا تصوراتهم وتطلعاتهم إلى آفاق المستقبل ، عسى أن يكون فيه تجديد لأمر الاسلام ، كان القرآن الكريم مركز كل أحاديثهم ، ومبعث انطلاقاتهم ، ومهوى أفئدتهم ، وقرروا تأليف لجنة من علماء المسلمين تناط بهم مهمة تقديم جديد للقرآن الكريم يأخذ في اعتباره ، العلوم الكونية الصحيحة المعاصرة .

وفي القرآن الكريم آيات خالدة ، وأصول هائلة ، وقواعد مدهشة ، إذا وعتها العقول أدركت القوة الخارقة ، قوة الخالق العظيم ، وانساقت إلى الايمان بالله العلي الكبير ، ونبذت كل ضروب الكفر والشرك والالحاد بجميع أنواعه ووسائله ، قال تعالى : (**قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**) يونس/١٠١ .

ولا ريب أن العاقل الذي يتجرد عن الهوى ويستعمل عقله وفكره ويتأمل بما في هذا الكون العجيب ، من نظام وابداع ، يتوصل ـ لا محالة ـ إلى الايمان بوجود الله ، وقد اهتدى كثير من العلماء نتيجة بحوثهم العلمية ، واستعمال عقولهم ، إلى الايمان بوجود الله العظيم .

وان قول الله سبحانه : (**ام خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون**) الطور/٣٥ ، ٣٦ . فيه دليل إلزامي يجعل الانسان العاقل منساقا إلى الايمان بوجود الله ، لأنه إذا استعمل

عقله واستدل بما يشاهد في هذا الكون ، من أن كل موجود يحتاج إلى من يوجده ، وكل مسبب يحتاج إلى سبب . فالعمارة لابد لها من موجد يوجدها والشجر والنبات لا يظهر ولا يوجد إلا بعد غرس النبتة الأولى ، والانسان لا يوجد إلا بعد عملية التلقيح بين الرجل والمرأة ، وهكذا ، فكيف يمكن ان يوجد هذا العالم وما فيه من شموس وأقمار من غير موجد يوجده ؟ إن ذلك مستحيل في عرف العقلاء ، والبشر لم يزعموا أنهم خلقوا السموات والأرض وما فيهما فكان ذلك دليلا إلزاميا على الاعتراف بوجود الله .

وإن « ديكارت » باعث الفلسفة الحديثة يستدل على وجود الله بما تضمنته هذه الآية ، يبدأ ديكارت دليله من الشك في كل شيء ثم يستطرد فيقول : ولكنني لو شككت في كل شيء فاني لن أستطيع أن أشك في أنني أفكر ، وما دمت أفكر فأنا شيء موجود .

وهكذا يثبت ديكارت أنه موجود ، وينتقل من حقيقة وجوده إلى التسليم بأنه لم يخلق نفسه ، ويقول : لأنني لو كنت خالق نفسي لجهزتها بكل الكمال الذي ينقصها ..

ويخلص ديكارت إلى أنه يلزم من ذلك أن يكون خالق الكون هو الله الواحد الأحد القادر الكامل .

ويزداد ذلك الموقف قوة وثباتا إذا انتبهت تلك العقول إلى ما في القرآن الكريم من إرشادات أو مضمونات لحقائق علمية أصبحت معروفة في الكون ، وما كان الناس يدرون من أمرها شيئا ثابتا مقنعا ، فاذا تنبهوا لذلك وأحاطوا به علما ، ازدادوا إيمانا ويقينا ، وجذبتهم تلك الحقائق العلمية ، مع ما في القرآن من إرشادات وتنبيهات ، إلى أن ينقذوا البشرية من أخطارها ، وينتزعوا عوامل دمارها وتهديمها ، بالأخذ بما في القرآن ، من مبادىء سامية ، وتطبيق ما يهدف إليه القرآن من شرائع حكيمة قويمة .

أمثلة من الأدلة العلمية

وإذا كان القرآن الكريم في بلاغته وفصاحته ، الحجة الساطعة على أئمة البلاغة وفرسان الفصاحة من العرب ، فانه بالنسبة لغير العرب لا تقوم هذه النواحي حجة عليهم ، ولا تقنعهم بأنه تنزيل من رب العالمين . ولكن حينما نعرض عليهم مثل قوله تعالى : **(وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها)** ١٢ / فاطر .

وقوله سبحانه : **(مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)** الرحمن ١٩ / ٢٢ .

وكان الرأي المعروف عند العرب وعند غير العرب ، أن الحلية واللؤلؤ والمرجان ونحوها إنما تخرج من الماء المالح ، وكان المفسرون يفسرون

الآيات المذكورة بأن المقصود أنه يخرج من أحدهما .

ولكن العلم والواقع أثبتا أخيرا أن اللؤلؤ كما يستخرج من أنواع معينة من البحر ، يستخرج أيضا من أنواع معينة أخرى ، فتوجد اللآلىء في المياه العذبة ، في انكلترا واسكتلندا وويلز ، واليابان وتشيكوسلوفاكيا الخ .

ويوجد الياقوت أيضا في الرواسب النهرية في (موجوك) بالقرب من (ماندلاس) في بورما العليا ، ومن الأحجار شبه الكريمة ، التي تستعمل في الزينة حجر التوباز ، وتوجد في الرواسب النهرية في مواقع كثيرة ، ومنتشرة في البرازيل وفي روسيا – الاورال وسيبريا – الخ ..

وهذه الحقائف والمكتشفات أثبتت بصورة يقينية أن الحلية واللؤلؤة وأمثالها تستخرج من الأنهار العذبة ، كما تستخرج من البحر المالح ، مما يشهد بأن هذا القرآن من عند الله سبحانه ، وقد أعلمنا بذلك منذ نزوله ، كما هو ظاهر من نصوص الآيات . ويقول « موريس بوكاي » ، الطبيب الفرنسي : كيف أمكن لمحمد عليه السلام أن يتناول قبل أربعة عشر قرنا ، حقائق علمية في القرآن الكريم ، لم يكتشفها إلا التقدم العلمي ، في القرون الحديثة ، لو لم يكن القرآن وحيا منزلا ، لا شك فيه ، ولا ارتياب في نصوصه .

ومن الأمثلة أيضا ، قوله تعالى : **(فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون)** يونس/٩٢ .

وهذه الآية الكريمة تشير إلى أن جسم فرعون سيبقى محفوظا ، ليراه الناس ، ويعتبروا برؤية ذلك الحطام الرميم ، لمن كان يعتبر نفسه إلها ، ويقول لقومه الخانعين ، ليس لكم من إله غيري .

ومن الأمثلة أيضا قوله تعالى : **(ألم تر ان الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار)** النور/٤٣ .

وهذه الآية سبقت ركب العلم في عدة أمور أشرنا إليها ، وإلى آيات أخرى من القرآن الكريم ، وأوضحنا وجه الاعجاز فيها ، وكيف أثبت العلم صحة ما ورد في القرآن مع أنه عند نزوله ما كانت تعرف تلك المعاني التي أشارت إليها الآيات ، لا في الجزيرة العربية ، ولا في غيرها ، مما يشهد بأن القرآن الكريم تنزيل من حميد مجيد .

نبذة عن القرآن الكريم

القرآن الكريم أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ليحرر النفوس من أغلالها ، والعقول من قيودها ، ويطهر المجتمعات من الخرافات والأوهام ، والعادات المتوارثة ، المبنية على التقليد الأعمي ، ويقضي على تقديس وعبادة البشر ، كما أنقذ

الانسانية من عبادة الحجر ، ويهدي الناس إلى سنن الرشاد ، ويعلمهم الكتاب والحكمة والسداد ، وينقذهم من مهاوي الضلالة ، ويرفعهم إلى درجة يرشدون فيها غيرهم من الأمم ، إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم وسعادتهم ، في العاجل والآجل ، وقد جمع أسمى المبادئ وأقوم المناهج وأفضل النظم ، واشتمل على كل ما يحتاجه البشر من العقائد والعبادات ، والآداب والمعاملات ، وقد كفلت تلك التعاليم إنشاء الفرد الكامل والأسرة الفاضلة والمجتمع الصالح ، والحكومة العادلة ، والكيان القوي الذي يقيم الحق والعدالة ويرفع الظلم ويدفع العدوان ، ويجعل الناس سواسية في أحكامه ، لا فرق في ذلك بين أبيض وأسود ، ولا بين مسلم وغير مسلم ، وطريق التفاضل بين الناس هو تقوى الله ، والعمل الصالح .

ولكن في ضوء هذا القرآن العظيم ، وهذه المبادئ السامية يحتاج المسلمون إلى وضع منهج عملي واضح ، وتحديد مبادئ لا يختلف عليها ، ولا يمس جانبها ، لأنها من القرآن أساسية ، ومن العقيدة تمس جوهرها ، وفيما عدا ذلك يترك لكل شعب ومناخ ، أن يختار ما يناسبه ويتلاءم مع ظروفه ، ويكون أيسر عليه تنفيذا وأسهل عليه تطبيقا .

فلا يجوز العبث بأركان الاسلام ، ولا يجوز البحث في أعداد الصلوات المفروضة ، ولا يجوز التخلي عن الجهاد ، ولا يجوز سلوك مسالك المهانة والذلة ، ولا يجوز الأغراق في الترف والملذات ، ولا يجوز تعريض الأمة للهلاك ، ولا يجوز تمكين الآخرين من أعداء الله أن يتحكموا في رقاب المؤمنين ، ويعذبوا المواطنين ويعتدوا على المقدسات .

قال تعالى : (**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون**) المنافقون/٨ .

وقال سبحانه : (**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**) الأنفال/٦٠ .

وقال عز شأنه : (**وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان**) النساء/٧٥ .

الخلق والعلم في آيات القرآن الكريم

وفي القرآن الكريم آيتان تحملان مبدأين عظيمين ومنهجين متلاقيين :

الأولى : قوله تعالى : (**وإنك لعلى خلق عظيم**) القلم/٤ .

الثانية : قوله سبحانه : (**وقل رب زدني علما**) طه/١١٤ .

ففي الأولى نهج أخلاقي واضح ، لا درجات فيه ولا مراحل ، إما أن يكون الانسان ذا خلق رفيع ، فيكون صادقا في أقواله وأعماله ، وأمينا في كل أحواله ، موفيا بالوعد ، ملتزما بالعهد ، قائما بالواجب ، شاعرا بما

عليه من مسئوليات ، وحينئذ يتمتع بثمرات استقامته ، ونتائج تصرفاته ، في الدنيا ، توفيقا وهناء وسعادة ، وفي الآخرة جنات خالدات ، ونعما متواصلات .

واما ألا يكون كذلك فلا يتمتع بتلك الثمرات ، لا في دنياه ولا في آخراه ، ومن هذا المنطلق قال الفقهاء : الخيانة لا تتجزأ ، فمن خان في القليل خان في الكثير ، ولعل هذا هو هدف الحديث الشريف ، حينما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده**) رواه الشيخان . أي أن من يسرق البيضة قد يتدرج حتى يسرق الدجاجة فأكثر منها فتقطع يده الخ ..

ولذلك لا ينبغي للانسان ان يتهاون في أية خيانة يرتكبها ، ولا في أية معصية يقترفها ، حتى لا يقدم على ما هو اكبر منها ، كما لا يجوز للمجتمع أن يسكت عن المعاصي تستشرى ، دون أن يحرك الناس ساكنا ، ودون أن يأمروا بالمعروف أو ينهوا عن المنكر ، وأخرج الأمام مالك عن صفوان بن سليم ، قلنا : يارسول الله « أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم ، فقيل له ، أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال نعم ، قيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : لا » .

وأخرج الترمذي عن سعد بن أبي وقاص رفعه : « يطبع المؤمن على كل خلة غير الخيانة والكذب » .

وهذان الحديثان وأمثالهما يدلان على كبر الأثم في الكذب ، لخطره ، ونتائجه السيئة ، قال تعالى : (**إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون**) النحل/١٠٥ ، كما أن الحديث الثاني يدل على خطر الخيانة وكبر اثمها ، مما يستدعي تجنب هاتين الخصلتين ، وكل خصلة سيئة مماثلة لهما أو دونهما ، حتى لا نبتعد عن الخلق الحسن ، وأن الله سبحانه وصف رسوله الكريم بالخلق العظيم ، وهو الأسوة الصالحة ، والقدوة الحسنة ، والأمام الأعظم ، لنقتدي به في سمو خلقه وكمال سلوكه .

وأما الآية الثانية ، فقد أرشد الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم إلى أن الانسان في مقام العلم ، لا يصل إلى المنتهى ، لأنه لا حد له ، ولا يبلغ مرحلة الاكتفاء ، ولذلك كان ارشاد الله سبحانه لرسوله الكريم أن يقول : (**رب زدني علما**) ، وهذا يعني أن الانسان مهما بلغ في العلم ، من رتبة سامية فان عند الله مقاما أعظم ، ودرجة اكبر ، مما يوحي إلى الانسان أن يتواضع وأن يشعر بما يهدف اليه قوله سبحانه : (**نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم**) يوسف/٧٦ .

ولذلك فان أئمة الاسلام في معظم العصور كانوا يدأبون على البحث والاستقراء والتجارب والاستنباط ، لأنهم يعتبرون ذلك ضربا من ضروب العبادات والقربات إلى الله سبحانه ، ويستمرون كذلك إلى أن يقعدهم

العجز أو الموت .

وكانوا لا يكتمون علما ، ولا يدخرون حقيقة ، يخفونها عمن سواهم ، لأن إرشاد البشرية ونفعها غاية لهم ، « وخير الناس أنفعهم للناس » ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم . رواه الطبراني .

ومن حسن حظ الانسان ان يكون مهيأ لقضاء مصالح العباد ، وأن يكون سبيلا لتفريج الكرب ، وإزالة الغموم والهموم عمن سواه ، وأن يكون بابا يفتح على أي خير لأي فرد من أفراد البشرية ، قريبا أو بعيدا ، صديقا أو عدوا موافقا أو مخالفا ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول لبعض أصحابه : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم ، أو خير من الدنيا وما فيها » . وقال أيضا : « إن لله عبادا خلقهم لحوائج الناس ، هم الآمنون يوم القيامة » رواه الطبراني ، وروى الترمذي وأحمد وأبو داود عن عمر بن مرة قال : دخلت على معاوية فقال : ما أنعمنا بك ياأبا فلان ؟ فقلت : حديثا أخبرك به ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين واحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة » .

وأن الامام أبا حنيفة عليه الرضوان سئل مرة بم بلغت ما بلغت إليه ؟ قال : لأني لا أستنكف الاستفادة ممن هو دوني ، ولا إفادة من هو فوقي .

وأنا أعرف شيوخا مرموقين من علماء الأزهر الأجلاء أو أئمته وكانوا أعلاما ، ومع هذا فانهم يجلسون مجالس التلامذة في حلقات أساتذتهم ، اعترافا منهم بالحاجة إلى المزيد من العلم والتزود بالمعرفة .

وكان المرحوم شيخ الاسلام ابن تيمية يؤلف الكتب ويبحث ويدرس ، وهو يرسف في قيود السجن (نتيجة وشاية بعض الحاسدين ذوى الأهواء والأغراض) وقد ترك وراءه ـ رحمه الله ـ ثروة ضخمة من مختلف أنواع العلوم ، في القرآن والحديث والفتاوي ، والرد على الفرق المنحرفة ، وشئون إسلامية أخرى ، منها الدعوة الاسلامية والسياسة الشرعية وغير ذلك ..

ولشيخ الاسلام ابن تيمية أربعون حديثا رواها بسنده هو ، وكان من تلك الأحاديث ، الحادي عشر ، والثاني عشر والثامن عشر ، والسابع والثلاثون والثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون والأربعون ، في سنده من شيوخه سيدات فاضلات ، وقال في روايته للحديث الثامن والثلاثين ، اخبرتنا الشيخة الجليلة الأصيلة أم العرب فاطمة .. قراءة عليها وانا اسمع الخ .. وفي روايته للحديث التاسع والثلاثين قال : اخبرتنا الصالحة العابدة المجتهدة ام احمد زينب مكي .. وفاطمة بنت علي بن عساكر قراءة عليهم الخ ..

وقال في روايته للحديث الأربعين اخبرتنا الشيخة الصالحة ام محمد زينب بنت احمد .. المقدسية قراءة

عليها وانا اسمع الخ .

وذلك كله يدل على ما كانت تتمتع به المرأة المسلمة في ذلك العهد من مكانة علمية مرموقة ، في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد اخبرني شيخي الجليل المرحوم الشيخ محمد بخيت المطيعي ، مفتي الديار المصرية سابقا ، في حلقة درسه ، في المسجد الحسيني بالقاهرة ، حينما كان يدرسنا ، كتاب الهداية في الفقه الحنفي ، أن صاحب كتاب « بدائع الصنائع » أبو بكر بن مسعود بن احمد الكاساني ، من اهل حلب ، ويلقب بسلطان العلماء ، كان لا يوقع على الفتوى ، الا اذا وقعتها قبله زوجته ، لوثوقه بها ، وبتضلعها في العلم والفتوى .

مما يدلنا دلالة واضحة على أن التوسع في العلوم والبحوث الدينية والمزيد منها شأن العلماء من الرجال والنساء .

واذا كان هذا شأن العلماء في العلوم الدينية ، وما يتصل بها ، فانه يجب دينا ، أن يهيأ للأمة كل ما تحتاجه من علوم وعلماء ، ومختبرات في أي شأن من الشئون التي نحتاجها لتأمين مصالحها ، سواء في الطب او في الهندسة أو في علوم الحرب والجهاد وألاته ، على اختلافها وتطورها .

وقد ذكر حجة الاسلام الغزالي ، وغيره من أئمة المسلمين أن من فروض الكفاية أن يهيأ للأمة جميع ما تحتاجه من كل علوم الدنيا ومتعلقاتها ، ومثل ذلك انشاء المصانع الحربية والمدنية للصناعات الثقيلة والخفيفة ، وليس من مقتضى أحكام القرآن ولا من مستلزمات شريعة الاسلام أن يتوسع المترفون بشراء القصور الفخمة ، والتطاول في البنيان والعمران ، لمزيد من مكاسبهم الشخصية ، أو لتحقيق ملذاتهم وانحرافاتهم ، والأمة بأمس الحاجة إلى مصنع يؤمن لها بعض حاجاتها الضرورية ، خصوصا ، ما توفر به وسائل الدفاع عن دينها وقرآنها ووجودها ومقدساتها . ومن ذلك يتبين أن الضروري من العلوم نوعان :

١ ـ علوم شرعية إلهية تستند إلى كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تبصر الناس بأمور دينهم وتوضح لهم الحلال من الحرام ، ووسائل التعبد الصحيحة .

٢ ـ علوم دنيوية يحتاجها المجتمع ولا يستغني عنها .

وأن كل من يسعى أو يساعد في تأمين حاجات الأمة ، في أي ميدان من الميادين الاقتصادية أو العسكرية أو أي ميدان آخر ، وتكون نيته صالحة وهدفه إرضاء الله ، يستحق من الله على ذلك العمل وذلك المقصد الشريف الأجر الكبير والثواب العظيم .

ماذا يجب في مطلع القرن الخامس عشر الهجري ؟

واعتقد أنه لا يجوز للمسلمين في مطلع القرن الخامس عشر الهجري

أن يبقوا عالة على غيرهم ، في ما يحتاجون إليه ، من الأبرة حتى الصاروخ ، ومن رغيف الخبز حتى بناء القصور ، ويجب عليهم أن يحققوا ما هدف إليه القرآن وتعاليم الاسلام ، من بناء أمة قوية ، في أخلاقها ، قوية في علومها ، قوية في مصانعها ، قوية في استعداداتها ، على مختلف المستويات والميادين ، وأن تكون قوانينهم ومجتمعاتهم صورة صادقة لما في القرآن الكريم وسيرة الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم . فاذا وصلنا إلى هذا المستوى وأدركنا هذا القدر من الواجب ، ونفذنا ما يطلب منا ، فلا يعقل أن نسكت على هذه المخازي ، التي تمثل على المسارح الدولية ، والتي توجه صباح كل يوم ومساءه ، طعنات نجلاء ، للعزة الاسلامية والعربية ، في فلسطين ولبنان ، وسائر المناطق العالمية الأخرى ، والتي يستخف فيها عدونا الصهيوني ، ومن يسانده من الدول الكبرى ، وغيرها من الدول الاستعمارية قديما وحديثا .

ولابد أن نستمر في تزويد الأمة ، بما يربطها بماضيها المجيد ، وتراثها التليد ، وتذكيرها بواجباتها ، خصوصا في هذه المرحلة الخطيرة من حياتنا ، حتى يهيئ الله لهذه الأمة من تقذف به مبادئه الاسلامية الصحيحة إلى قمة المجد والسؤدد ، فيسير ويقود الأمة الى طريق الجهاد والأنقاذ والشرف .

وعلينا أن نستلهم من القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم ما يكون خطة لنا في مطلع القرن الجديد ، ونتذكر قوله سبحانه .

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) الممتحنة/٨ ، ٩ .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » رواه اصحاب السنن .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « من قتل دون مظلمة فهو شهيد » رواه النسائي .

فكيف بمن يقاتل دفاعا عن كل ذلك ؟

نسأل الله أن يلهمنا رشدنا لازالة مظاهر الذلة والخزي والعار ، الذي هو لاحق بكل عربي ومسلم ، مادامت القدس والديار المقدسة تحت الاحتلال ، ومادام المسجد الأقصى والمسجد الابراهيمي أسيرين ، ومادام السكان المستضعفون يعانون من ظلم الأعداء سواء كانوا في السجون ، أم خارج السجون .

وإن لله عبادا إذا أرادوا أراد ، وإذا اتجهوا إليه ونصروه نصرهم وأيدهم وأعانهم .